والانطلاق الحقيقي في العادات والسلوك ، والافق الفكري والاجتماعي المنطلق ، حتى ليعتقد المعلم العجوز ان ولده وزوجته قد وقعا في حرم الجامعة الامريكية في أسر الافكار اليسارية الجديدة . وبسرعة ينتقل البروفسور الشاب مع عائلته الى القدس حيث يعمل استاذا في الجامعة ، ثم يجند . وتتوالى الاحداث بسرعة ، فاذا بالمعلم العجوز ، يتلقى خبرا يفيد ان ابنه قتل في صدام مع « العدو » في وادي الاردن . ويسافر الاب المرعوب الى القدس ويصل الى بيت ولده ، فلا يجد كنته ، بل يجد امراة عربية عجوزا تنظف الدار . ويذهب مرعوبا الى روضة الاطفال القريبة ليقتاد حفيده الى البيت — يريد ان يحمل حفيده لان فيه رائحة ابنه . ويذهب الى المستشفى ليتعرف على جثة ولده ، ثم لتجري العملية الروتينية عملية دفن « الشهيد » الجديد !!

ولكن ... وهنا يحدث تحول صارخ في الرواية . يكتشف الوالد ان الجثة التي يظن المسئولون العسكريون انها جثة ابنه ليست في الحقيقة جثة ابنه . وهنا ، تستيقظ آمال الاب . ويبدأ الصراع الضاري الذي يتفجر بالانسانية ، بين أمل الاب في ان ابنه ما زال حيا يرزق وبين خوفه من الآمال الفارغة . ويروح المعلم الشيخ يحضر خطابا في الصف الثاني عشر في المدرسة لتوديعه . هذا الصف الذي سيذهب الى الجيش . أذن فان المدير سوف يعطي المعلم الثاكل الفرصة النادرة ، فرصة بث الروح المعنوية في جنود المستقبل !!

وبعد ذلك يذهب المعلم الشيخ مع « الحاخام العسكري » الى المعسكر الذي كان ينتمي اليه ولده . ويقتادون الوالد المبرح بكاء وعذابا الى وادي الاردن للاتصال بالقيادة العامية للمعسكر ، لتقصي مصير ابنه . وفي وادي الاردن ، تكون الفرقة قد ابلغت بكل تعقيدات القصة ، وحين يصل الوالد يستقبلونه ، ويخبرونه بسرعة بأن ولده حي يرزق. وبعد وقت قصير تعود الدبابات من « مهمة » وينزل الجنود واحدا واحدا ، ثم ينزل ولده . وهكذا ينبعث الابن من جديد ، بعد ان مات طوال يوم كامل ، وبعد ان ابنه والده ولبس عليه بذلة سوداء تتناسب مع المصاب الجلل ، وخلال هذا تكون الزوجة ايضا قد جاءت واطمأنت وينامان الى الصباح ، في المعسكر .

القصة باختصار اذن ، هي أن الوالد يبلغ خطأ بأن ابنه قد مات ، وخلال يوم يكتشف كذب هذا الخطأ . وهكذا فان « أحداث » القصة بسيطة حقا ، « لا تكفي » لتكون خيوط قصة طويلة . ومع هذا ، فان قوة هذه القصة في عنفها ، ليس في الاحداث ، بل في الرداء العاطفي الرائع من الافكار والتخيلات والهواجس والاحلام ، التي تملأ قلب بطل القصة — المعلم العجوز — الذي تروي كل القصة على لسانه ، بضمير المتكلم . كذلك فان سير الاحداث في القصة لا يأتي « منطقيا » ، من البداية الى النهاية ، بل أن هناك اختلاطا عجيبا ، رائعا ، بين الاحداث والمشاهد ، اختلاطا ، هو من الناحية الفنية والفكرية ، تعبير صادق عن ذهول الوالد ، وعن ضياع حدود الزمان والمكان في ذهنه ، وهو يواجه موقفا رهيبا غير عادي . لو تأكد أن ولده مات فعلا لواجه الموقف بالصبر ، او بالانهيار ، ولو تأكد أن ولده لم يمت لانتعش ، ولكنه خلال كل احداث القصة كان معلقا بين الانهيار والامل ... ومن ناحية أخرى ، فاننا نعتقد أن كل الوصف القوى لشخصية البروفسور الشاب ، ولشخصية زوجته الامريكية الشابة ، ولشخصية الطفل ، وللعلاقات بين هذه العائلة الصغيرة ، ولافكار البروفسور وزوجته ، تعطي عنفا خاصا لحبكة الرواية ... هذان الشابان اللذان يتفجران حياة وجدية ، اللذان جمعهما القدر في امريكا ، يؤمنان بالسلام وبالحرية ، ويحملان افكارا انسانية عالمية . أبعد هذا يموت البروفسور على مذبح القومية المتعصبة ؟!

لقد تمكن بن يهوشع ، في أسلوب مكثف من ناحية ، في سرد يشبه الهذيان ، او نقل يشبه أحلام اليقظة عند انسان مرعوب — تمكن من طرح قضية من القضايا أمام المجتمع